الأدب الإسلامي بغرب أفريقيا: مصادره ومناحيه

الدكتور موسى عبد السلام مصطفى أبيكن

التمهيد:

الأدب فن رفيع من فنون التعبير، يروم إمتاع النفس، وإثارة المشاعر النبيلة فيها، وصرفها عن الهموم والمشاغل التي تلف الإنسان، وتستأثر بأوفى نصيب من تفكيره وتدبيره. وقوام الأدب الرفيع، اللفظ المهذب، والعبارة الجميلة، والمعنى النافذ، والخيال الخصيب، سواء أكان هذا الأدب شعراً أو نثراً، مقالة أو قصة تنبعث من أعماق الباطن، أو خطاباً ينطلق من تجارب الحياة، ويحسن الاستفادة منها[١].

والأدب نتاج البيئة التي ينشأ فيها الأديب ويترعرع، فإذا ما أدرك الأديب درجة عالية من الإبداع والأصالة بحيث يسمو حسّه الإنساني، فإنه يجاوز الحدود القومية متى واتته الظروف؛ فيكتسب إشعاعاً عالمياً من غير أن يفقد خصوصياته الذاتية، وطابعه الأصيل[٢]. ويرتبط الأدب بالمجتمع ارتباطاً قوياً، فهو في حقيقته تعبير عن المجتمع، وكل ما يجري فيه من نظم، وعقائد، ومبادئ، وأوضاع، ومواقف، وأفكار[٣].

وقد أنتجت القرائح البشرية آثاراً أدبية لا يحصيها العدّ، منها أعمال اكتسبت بعداً عالمياً، وتسارع الناقلون إلى ترجمتها، والناقدون إلى دراستها، وإظهار محاسنها، وعيوبها[٤]. ولما كان الأديب فرداً من أفراد المجتمع، فهو يصدر أدبه عن كل ما يرى ويسمع ويحسّ فيه، صانعاً مادته الأدبية من مرئياته، ومسموعاته، وإحساساته[٥].

وأدب كل أمة ترجمان عواطفها وميولها، وصورة إحساسها وانفعالاتها، والإطار الذي تنعكس عليه مشاعرها، وترسم فيه خوالجها ومذاهبها. وهو معيار دقيق لكل ما يتردد فيها من آراء أو تصل إليه من رقي وحضارة. إذا لانت القلوب،

واحتشدت بالحنان والرحمة، وإذا تدفقت العواطف نابضة بالإخاء والحب، ظهر ذلك في الأدب الذي هو ثمار الألسنة. وإذا قست الأفئدة، وجفت الطباع، وغلبت البداوة، نضح كل ذلك على صفحة الأدب، فبدت كالحة الوجه[٦].

وقد أجمل هذه الخلال المجيدة الدكتور عيسى ألبي أبو بكر في بائيته[٧] إذ قال:

أنا أهوى من يغذي الأدبا ... باذلاً في رفعه ما وجبا[٨]
ساهراً في ليله يرقبه ... ثم يجلي عن حماه الريبا
كل فن لا ينمي خلقي ... ناقص لا تدخلوه الكتبا
وبه تحسن أخلاق الورى ... وينال العقل منه المأربا
أدب الإسلام يعلو صاعدا ... كلما عانى سواه الصببا
مشرقاً يقطع أنفاس الدجى ... بطل من يتحدى الغيهبا
حامياً كالنار في وجه العدى ... ولطيفاً كالندى إن طيبا
يستقى القرآن في أفكاره ... ويباري بحديث المجتبى

أفريقيا الغربية:

تعرف أفريقيا الغربية عند العرب ببلاد السودان الغربي[٩] وتبلغ مساحتها كلها ستة ملايين كيلو متر مربع تقريباً، كما أن سكانها يربو عددهم على (٢٠٧، ٢٤٧،٠٠٩) مليون نسمة[١٠]، وتتألف أقطار غرب أفريقيا من مالي، وسنغال، وغامبيا، وموريتانيا، وبشاو، وغانا، وسيراليون، ونيجر، وكاميرون، وبوركينا فاسو، وساحل العاج، وغينيا، وليبيريا، وبنين، وتوغو، ونيجيريا التي هي أعظمها سكاناً، وأوسعها أرضاً، وأكثرها ثقافة.

وإن قبائل غرب أفريقيا، وإن كانت متعددة في الفروع، فهي متّحدة في الأصول، متقاربة في التقاليد والعادات، متشابهة في العقائد والديانات، ومتحالفة في الدفاع عن الغارات والهجمات. أما قبائل غرب أفريقيا فترجع إلى خمسة جراثيم: وهي إما بربرية أو فينيقية أو رومية، أو نوبية أو عربية. وقد امتزج بعضها ببعض عن طريق المصاهرة حتى تكونت منهم القبائل الحاضرة.

ويرجع الفضل إلى الإسلام في قيام غرب أفريقيا الحضاري والعلمي؛ وذلك أن تاريخ غرب أفريقيا قبل الإسلام متداول على ألسنة الناس بغير التدوين، وبذلك، مضى الكثير من الأمجاد التي صنعها الأجداد والآباء بموتهم[١١] والسبب في ذلك، يرجع إلى أن علماء غرب أفريقيا القدامى، لا يكترثون بتدوين حوادث بلادهم التي شاهدوها، ولا بدراسة أحوال أرضهم التي نشأوا فيها، وترعرعوا فوقها، وإنما يطمحون إلى دراسة أحوال البلاد النائية[١٢] ويصرفون النظر عن بلادهم الدانية إلا قليل منهم، وفي طليعتهم أحمد التمبكتي، وعبد الرحمن السعدي، وآل فوديو وتلاميذهم. فهؤلاء الذين بحثوا في التاريخ الإفريقي القديم، وتركوا لنا منه شيئاً نستضيء في البحث، ونهتدي به في التأليف[١٣].

ويحتمل أن قد قامت في مناطق غرب أفريقيا في تلك العصور القديمة دول أقدم من غانا، وسنغى، وسنغال، ومالي، وأبعدها نفوذاً، وأكثرها سمعة، وأعظمها رجالاً، وأنشطها تجارة، ولكن أكل عليه الدهر وشرب، وأصبحت في حكم المنسيات[١٤] قصارى القول، إن أفريقيا الغربية ولدت من جديد، وسرعان ما اعتنق أهلها الإسلام ودخلوا في دين الله، وانتشر الإسلام في كافة أحيائها الوثنية، وفي جميع عمارات أهلها، صارت لهم العزة بفضل دين الله الذي لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عز.

من أسباب انتشار الإسلام في غرب أفريقيا:

لقد كان الجنس الأسود موسوماً بالخسف والهوان في تاريخ شعوب العالم قبل الإسلام، لم يعترف الجنس الأبيض بدولة سودانية قبل ظهور دولة غانا، ومالي،

وسنغى الإسلامية بل يعتبر الجنس الأسود أداة للتسلية، ومثاراً للضحك أو كان مسخّراً للأعمال الشاقّة في كل مكان حتى صار اللون الأسود شعاراً للعبودية، وصارت كلمة عبد ترادف كلمة أسود في لهجة سوريا، ولبنان وغيرهما من البلدان[١٥].

ولما جاء الإسلام، كان من أهم أعماله تحرير السود من عبودية البيض حيث قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو عمل صالح"، كان أول وسام الشرف الذي قلّده الإسلام على الداعي إلى الله هو وسام الأذان الذي قلّده النبي لبلال الحبشي الأسود الذي ينادي إلى الصلاة في أوقاتها الخمسة فيسرع كل شريف وعظيم إلى تلبية ندائه.

فكان عدم التفرقة العنصرية بين لون ولون، وبين جنس وآخر مما يساعد على نشر الإسلام في ربوع أفريقيا. ثم وجد الإسلام أمم السودان أمة أمية فنشر بينهم الكتابة؛ فصاروا في عداد الأمم القارئة الكاتبة، وألف عدد كبير منهم عدة كتب منها: تاريخ أفريقيا الذي به عرف الأوربيون تاريخ تلك البلاد[١٦] ووجدهم على الجاهلية والهمجية فرفعهم إلى مصاف الأمم المتحضرة، وقد تمتع الجنس الأسود بثقافة الإسلام قروناً طويلة قبل أن تفتح عيون أوربا للنور، وقبل أن يدخلوا أفريقيا فاتحين قاهرين مستعمرين.

العرب هم أول من نشر الإسلام في غرب أفريقيا ثم تلقّاه منهم العجم كالبربر، وسائر أجناس السودان وطبقاتهم من ملوك، وأمراء، وعلماء، وفقهاء، وعباد، ونسّاك. كلّ قد ساهم في خدمة الإسلام ونشره في حدود إمكاناته وطاقاته. ويمكن أن نجمل هذه الأسباب في النقاط الآتية:

١- بساطة العقيدة وسماحة الإسلام:

إذا كان الإسلام قد انتشر في الشمال الأفريقي عن طريق الفتح، فإن انتشاره في غرب أفريقيا قد تم بوسائل أخرى، كان أهمها بساطة العقيدة الإسلامية،

وسماحة هذا الدين مما جذب إليه قلوب السكان، وحببهم في الدخول فيه. وقد قام بهذه الرسالة، وذلك المجهود الكبير العرب المسلمون، وساعدهم على ذلك البربر، سكان شمال أفريقيا، كما أن الإسلام يحتوي على امتيازات تجذب إليه الأتباع، أهمها أن الداخل فيه، لا يحتاج إلى جهد أو عناء، فإنه بعد تلك الامتيازات، أباح الإسلام الاجتهاد في فروع الشريعة لكل قادر، وهو المتمكن في فهم الكتاب والسنة، والملمّ بعلوم اللغة وقواعد الاستنباط، فمن المقرر شرعاً، أن المجتهد ولو أخطأ مأجور، فمن أصاب، فله أجران، ومن أخطأ فله أجر[١٧].

٢- التجارة:

ومن أهم وسائل انتشار الإسلام في غرب أفريقيا التجارة. وقد نزل التجار المسلمون على امتداد الشمال الأفريقي، والكثير منهم توغل إلى داخل البلاد على امتداد المدن والقرى الأفريقية التي يتردد عليها، وفي القرن الأول الهجري، حمل التجار المسلمون إلى بلاد غرب أفريقيا في ركاب تجارتهم، ديناً جديداً، هو الإسلام كما حملوا عادات، وتقاليد طيبة في السلوك والمعاملة، ولم يكن هؤلاء التجار كلهم طلاب ربح ومال، بل كان فيهم صفوة ممتازة من الفقهاء والعلماء الذين طلبوا الدنيا والآخرة معاً. فاختلطوا مع سكان البلاد في الأسواق والمدن والقرى، وبثّوا فيهم دين الله الحنيف[١٨].

٣- دور الدعاة والمعلمين:

لقد انتشر الإسلام في غرب أفريقيا على يد الدعاة والمعلمين الذين وهبوا أنفسهم لنشر هذا الدين بين أبناء البلاد. وهؤلاء الدعاة لا يمثلون فئة مرسلة من قبل هيئة إسلامية أو حكومة مركزية، بل كانوا يقومون بهذا العمل بدافع الواجب الديني، ورغبة منهم في كسب رضا المولى جلّ وعلا. زادهم الإيمان، ورفيقهم القرآن، وعونهم الصبر الجميل على مكابدة المخاطر، وهدفهم نشر كلمة التوحيد بين تلك الأمم التي تعيش على الفطرة والصفاء. ومن الدعاة من كرّس جهده لدعوة

الناس إلى دين الإسلام، وانقطع لتعليم الداخلين فيه قواعد الشرع. وهؤلاء كانوا يتوغلون في داخل البلاد، ويختلطون بالسكان، ويتزوجون ممن يعتنقن الإسلام، ويقومون بتعليم الأطفال مبادئ العقيدة، وهؤلاء الدعاة، يتوافد إليهم الأطفال المسلمون والوثنيون على السواء طلباً لهذا العلم الجديد، وبعد دراسة شيء من القرآن الكريم، يدخل كثير من الوثنيين في الإسلام.

٤ – الزوايا:

ومن الوسائل التي بها انتشر الإسلام في غرب أفريقيا الزوايا. والمقصود بالزوايا هنا، الأماكن التي يتخذها المتصوفة لترويض النفس، وتربيتها على الخلق الإسلامي، ويطلق أيضاً على موضع من أركان المسجد. وبمرور الزمان، واتساع نطاق البلاد الإسلامية، اتسع مفهوم الزاوية، فهناك عشرات من الزوايا التابعة للطريقة التيجانية، وأخرى تابعة للطريقة القادرية أو السنوسية في غرب أفريقيا(١٩).

ويقوم أصحاب تلك الزوايا بتعليم المسلمين مبادئ الإسلام مع تحفيظهم شيئاً من القرآن الكريم غالباً، وعلوم الفقه والحديث، وقواعد الدعوة، ثم إرسالهم إلى أماكن شتّى دعاة مخلصين لدين الله، ويقومون بأعمال الإرشاد في المساجد، والقرى المسلمة، وبين رجال القبائل والعشائر، وتعليم اللغة العربية لمن اعتنق الدين(٢٠).

أصناف من نشروا الإسلام في غرب أفريقيا:

يمكن حصر الذين نشروا الإسلام في غرب أفريقيا في ثلاثة أصناف:

الأول: هم الغزاة الفاتحون الذين أقاموا دولة الإسلام في مختلف ربوع أفريقيا ثم وطّدوا السبل، ومهّدوا الطرق بفتوحاتهم، وأقاموا دولاً إسلامية بعد نجاحهم من أيام عقبة بن نافع، فاتح أفريقيا، ومن تولى على أفريقيا من بعده حتى الأدارسة، والمرابطين، والموحدين، والحفصيين، والملاويين، والوناغرة، والسنغاليين، والفلانيين، والبرنويين(٢١).

أولئك الذين مهدوا السبل للدعاة المجهولين، الذين كانوا يتطوعون للدعوة في أماكنهم، ويتوزعون لها في أقاصيهم وأدانيهم، لا تبعثهم حكومة، ولا تشرف عليهم إدارة، ولا تنظمهم قيادة، بل هم مبعثرون في تلك البقاع يستعملون مختلف الوسائل الممكنة لنجاح دعوتهم.

الثاني: التجار المتجولون بين شمال أفريقيا وغربها. وقد صحّ أن العرب في صدر الإسلام، كانوا ينقلون بضائع الأسلحة كالسيوف، والرماح، والملابس الصوفية والحريرية من شمال أفريقيا إلى غربها، ويتوزعون لبيعها في غانا، ومالي، وسنغى، وكاشنه، وكنو، وبرنو، ثم يعودون من هذه البلاد بريش النعام، والعاج والعبيد(٢٢).

وكانوا – بطبيعة الحال– يسافرون زرافات ووحدانا لتبادل هذه السلع، وتلك البضائع، مزودين بالأسلحة التي تحميهم من المعتدين، وإذا حلوا ببلد، أقاموا في حي لهم مستقل عن الحي الأصلي الوثني، وكوّنوا لأنفسهم جالية إسلامية تقيم إقامة دائمة بالبلد، وتحيي بها شعائر الإسلام كعادتهم في بلادهم، يتوضؤون، ويقيمون الصلاة جماعات. وإذا جاء شهر رمضان، أحيوا لياليه بالاجتماعات في التراويح، وتلاوة القرآن، ومجالس الوعظ والذكر.

وإذا أفطروا أو تسحّروا، تزاحموا جميعاً على طعام الإفطار والسحور في وقت واحد بصورة جذابة، وطريقة مغرية. وإذا حلّ فيهم عيد الفطر، احتفلوا به، وخرجوا لصلاته في المصلى يظهرون في ذهابهم وإيابهم مزايا الإسلام ومحاسنه. وإذا أدركهم عيد النحر، عظموا ضحاياهم، وقدّموها قرباناً لله، ثم فرّقوا لحومها بين فقرائهم، وتزاوروا فيما بينهم. كل هذا، يؤثر على عقول الصغار من غير المسلمين، ويلفت أنظار الكبار ممن شرح الله صدورهم فيدخلون في دين الله.

الثالث: الدعاة الصوفيون فهم العباد والنسّاك المعروفون بلزوم الأذكار والأوراد، والإعراض عن زهرات الدنيا وزخارفها، والزهد في ملذاتها وشهواتها. ولهؤلاء الصوفيين جهود ملموسة في نشر الإسلام في إقامة الدول، والممالك

الإسلامية بغرب أفريقيا[٢٣] وإن كانت الصوفية قد خرجت اليوم عن مقصدها الأول، وتسرّبت إليها البدع والأفكار الأجنبية. فلقد أدّت خدمتها الجليلة للدعوة الإسلامية خصوصاً في غرب أفريقيا حتى لم يبق مجال لنكران فضلها في نشر الإسلام.

إضافة إلى هذه الأصناف الثلاثة، فإن الحكام الإسلاميين المتحمسين، والموظفين الكبار الذين يستغلون المناصب العالية في حكومات غرب أفريقيا يد طولى في نصرة الإسلام، خصوصاً الأثرياء الذين يساعدون البؤساء والمنكوبين حتى جذبوا بأعمالهم الخيرية عدداً كبيراً إلى الدخول في الإسلام. وهؤلاء هم الذين ساعدوا على نشر الإسلام في الماضي والحاضر حتى استغلظ واستوى في غرب أفريقيا.

وإلى الذين ابتدعوا أموراً مستحدثة في التصوف الإسلامي بغرب أفريقيا، يقول عنهم الدكتور عيسى ألبي أبو بكر قائلاً:

بعض التصوّف خشية وصفاء ... ويكون فيه تحايل ورياء
يا قوم ما جدوى الزوايا ملؤها ... جهل المريد تقوده أهواء
لا ينفع التهليل قلباً عاشقاً ... مستنقع الأدران وهو خلاء
إن التنسّك بالجهالة فتنة ... والعلم من دون الصلاح بلاء

الثقافة العربية الإسلامية بغرب أفريقيا:

ظلّ تاريخ الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا خلال القرن السابع عشر، والثامن عشر الميلاديين ضئيلاً بل لا أهمية له على الإطلاق إذا ما قارناه بالنهضة العظيمة في نشاط الدعوة الإسلامية من القرن التاسع عشر إلى اليوم[٢٤] وقد كان مسلمو غرب أفريقيا آنذاك في حاجة إلى من يوقظهم من الاختلاط السائد قبل عثمان بن فوديو بالتجديد والجهاد في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية التاسع عشر الميلادي.

ولا تكاد قدم الإسلام تثبت في بلد من البلاد حتى تتأثل ثقافته في أرضها[٢٥] أو تظهر على ثراها مدارس ثلاث في أرجائها: أولاها: المدارس القرآنية، وثانيها: مدارس تحفيظ القرآن، وثالثها: المعاهد الأهلية الإسلامية.

فالمدارس القرآنية، عبارة عن أن يكتب المعلم لتلميذه الحروف الهجائية أولاً على اللوح ليتعلمها ثم يكتب له سورة الفاتحة أيضا ثم المعوذتين ثم سورة الإخلاص فسورة اللهب فسورة النصر وهكذا.

وهذه المرحلة تستغرق عدة شهور ثم يواصل قراءة السور مع الحفظ حتى يصل إلى سورة الأعلى أو سورة النبأ. وهنا تنتهي مطالبته بالحفظ في بعض المجتمعات الإسلامية بغرب أفريقيا. فهذه الطريقة تأخذ الولد أربع سنوات أو أكثر قبل أن يختم القرآن كله سرداً[٢٦] وقد اعتاد النيجيريون في نيجيريا وما حولها من بلاد غرب أفريقيا أنهم لا يخلطون في تعليم القرآن للولدان بشيء من العلوم الأخرى، بل يقتصرون على تعليم القرآن استظهاراً كالبرنويين[٢٧] والسنغاليين[٢٨] والهوساويين[٢٩] أو سرداً كسائر اليروباويين[٣٠] الذين يكتفون بحفظ بعض السور القصار لتأدية الصلاة المفروضة[٣١].

ثانيها: مدارس تحفيظ القرآن

تقع مدارس تحفيظ القرآن في كثير من دول غرب أفريقيا، وأهمها نيجيريا، وسنغال، ومالي، وموريتانيا، وغانا. وهي موجودة حتى في القرى. وعددها قليل بالنسبة إلى الكتاتيب، ولا يلتحق بها الولد في الغالب إلا إذا أتم مرحلة الكتاب.

فهذه المدرسة عبارة عن أن يكتب المعلم لتلميذه الثمن الأول من سورة البقرة على لوحة ثم يأتي به إلى المقرئ الذي يقرئه إياه بدقة مشيراً إلى جميع أماكن المد، والإدغام، والوصل، والوقف، ومخارج الحروف، وما إلى ذلك ثم ينصرف التلميذ لحفظ هذا الثمن إلى أن يتقن حفظه ثم يعود إلى المقرئ، ويسمعه إياه،

فإذا اقتنع به أمره بالمضي إلى الثمن التالي، وهكذا حتى يحفظ القرآن كله. وقد يلتجئ المدرس إلى أسلوب يراه أنسب للدارس، ولكن التلاميذ في هذه المدارس لا يزالون في غرف التحفيظ مقيدين بالسلاسل.

وتختلف مدة الحفظ حسب اختلاف قوة ذاكرة التلميذ، ولكنها في الغالب تتراوح بين سنتين اثنتين وخمس سنوات، وربما زادت على ذلك. والحق أن حفظهم للقرآن حفظ متقن للغاية إلا أنه ينقصهم جهلهم المطبق بمعناه، ولكن عدداً لا يستهان به، يجمع بين الحفظ والمعنى، وإن كانوا قليلين[٣٢] ثم يخلع عليهم ألقاب، ومن الألقاب المشهورة عندهم "حافسي"[٣٣] أو "مى ستين"[٣٤]، وفي بعض المجتمعات، يطلق عليهم بـ "قوني"[٣٥].

وقد ازدادت هذه المدارس بازدياد التوعية الإسلامية الناجمة من الناشئين من جهة الشبان والشابات. ومن الأهمية بمكان أن التسهيلات الحديثة من الشرائط المسجلة المنتشرة في العالم بأسره بأصوات مختلفة للقراء المشهورين في العالم العربي والإسلامي قد ذللت بعض الصعوبات التي يواجهها طلاب غرب أفريقيا في القراءة بالقياس إلى القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

وقد أحسنت ولاية كنو[٣٦] صنعاً في هذه الآونة الأخيرة أن ساوت أصحاب الليسانس بحفظة القرآن سواء بسواء في الرواتب الشهرية. وبذلك، ازداد الإقبال على حفظ القرآن في نيجيريا وما حولها. فمما قيل في مدينة كنو وصفاً قول شاعر:

أبـــاريس حوســـا عليـــك الســـلام ســـلام مـــن العاشـــق المستهـــام[٣٧]
أزجـــي التحيـــات شوقـــاً إلـــى جميـــل صـــفاتك بـــالإكرام
معالمـــك الغـــر لامعـــة تكـــاد تفـــوق نجـــوم الظـــلام
ومـــن بينهـــا المســـجد الفاخـــر كجـــامع دلهـــي جمـــال النظـــام
ومأذنـــه طاولـــت إذ بـــدت نـــواطح نيويـــورك بقـــرب الإمـــام
ومكتبهـــا قـــد حكـــى البرلمـــا ن القـــاهري لحســـن التمـــام
تـــرى الطـــائرات تعاودهـــا أتـــت مـــن أوربـــا ومصـــر وشـــام
بكســـتان مـــن الصـــين مـــن سنغفـــور مـــن الهنـــد برمـــا وجـــاوا سيـــام
وصـــارت كنحـــل أتـــت بعســـل خليتهـــا أو كـــزور الغمـــام
لهـــا ارتبـــاط بـــأم القـــرى بحبـــل الســـماء لـــزور المقـــام
كنـــو جمعـــت علـــم شـــرق وغـــرب ففـــازت بســـهمين بـــين السهـــام
لـــذلك قيـــل كمثلـــك ألـــف قـــديماً فأصـــدق بـــه مـــن كـــلام

أباريس حوسا وعاصمة الشمال عليك دواما سلام، ندعو الله المولى أن يكثر لغرب أفريقيا أمثال مدينة كنو في رفع صوت الإسلام بمادياته ومعنوياته.

ثالثها: المعاهد الأهلية العربية

وهي عبارة عن عرصات يتصدر فيها عالم لإلقاء الدروس، وهي ليست مبان ضخمة ذات فصول ومكاتب تتبع مقرراً أو منهجاً خاصاً أو حكومة من الحكومات الاتحادية والولائية والمحلية، وإنما مكان خصصه العلماء في ساحات دارهم لتعليم الناس، صغاراً وكباراً. والشيخ الذي يلقي الدروس فيها لا يشترط عليه أن يتحصل على إجازات في المواد التي نصب نفسه لتدريسها، ويكفيه أنه واثق بنفسه في تدريسها كما درسها على الطريقة التقليدية، وهو مستعد لنقلها إلى الآخرين. وينقسم

هؤلاء العلماء إلى قسمين: متفننين ومتخصصين. ومعنى التفنّن هو أن يجمع العالم بين علم أصول الدين والشريعة، والأدب، واللغة. والتخصص: هو مقدرته على تدريس فن من الفنون العربية والإسلامية يظهر نبوغه فيه كمقدرته على تدريس مقامات الحريري[٣٨]، ومختار الشعر الجاهلي، وغيرهما من الكتب الأدبية المشهورة بينهم أو بظهور نضوجه في تدريس الفقه الإسلامي كمختصر الخليل بن إسحاق[٣٩].

ليس هنالك شروط رسمية يلتزم عليها الطالب قبل الانضمام إلى هذه المعاهد، لكن يتحتم عليه أنه قد اجتاز مرحلة الكتاب، واستطاع أن يقرأ متون الكتب بمفرده بدون إعانة من معلميه. والذين يلتحقون بهذه المعاهد أكثرهم قد دخلوا في العقد الثاني من أعمارهم. وأما الكبار فمنهم من جاوز الثلاثين أو الأربعين سنة. والباعث إلى التعلم لهؤلاء الأشخاص الكبار، رغبتهم الشديدة في العلم وأهله فتستمر بهم الدراسة إلى فترة طويلة أم قصيرة حسب رغبة الدارس. والتعليم فيه مجاناً[٤٠].

طريقة الدراسة فيها:

أما طريقة الدراسة فهي عبارة عن الابتداء بالكتب الدينية السهلة ثم قراءة بعض كتب اللغة ثم بعض كتب النحو ثم الحساب ثم التفسير ثم الحديث ثم الصرف والبلاغة ثم التاريخ والمنطق والعروض. وقد يدرس الطالب جميع هذه الفنون عند أستاذ واحد إن كان متفنناً. وقد تعدد أساتذته إذا شاء، أو ينتقل من معهد إلى آخر. ولكن العادة جرت أن يبدأ الطالب في الفقه مثلاً بكتاب صغير الحجم، سهل اللفظ والتركيب، ثم ينتقل إلى ما هو أصعب منه بالتدريج فيبدأ بالأخضري، فمنظومة يحيى القرطبي، فالعزية، فالرسالة لأبي زيد القيرواني، فأسهل المدارك لعبد الرحمن بن محمد بن عسكر البغدادي، فمختصر الخليل وهكذا.

وفي النحو، يبدأ بأيا طالب الإعراب لعثمان بن فوديو، والأجرومية لمحمد محيي الدين عبد الحميد، وملحة الإعراب لأبي القاسم الحريري، وقطر الندى لأبي محمد جمال الدين هشام الأنصاري، وشذور الذهب، وألفية بن مالك. وهكذا يفعل في كل مادة ينتقل من كتاب إلى ما هو أصعب منه. وهذه الكتب يدرسها الطالب لمدة تقل أو تكثر حسب مقدرة الطالب ومزاجه. وكان الطلبة دائماً يعتمدون على الكتب التي تدرس، وعلى المدرس الذي يدرسها على طريقة الأزهر القديمة[٤١].

مدة الدراسة:

ومدة الدراسة في هذه المعاهد، كانت على فترتين، صباحية ما بعد صلاة الصبح إلى الضحى، ومسائية من الظهر إلى العصر أو قبيل المغرب حسب ظروف الدارس. ومدة الدراسة كل فترة تتراوح بين ساعتين إلى ثلاث ساعات، وقد تطول أكثر من ثلاث ساعات، وتستمر الدراسة طوال العام لا عطلة فيها إلا في شهر رمضان، وأيام الأعياد. وليس للدارس سنوات يقف عندها، وإنما تعتمد على جهد الطالب واستعداده وإدراكه، ولا تقل عن عشر سنوات؛ فبيوت العلماء مفتوحة على مصاريعها لتدريس أي طالب قدم إليهم بغض النظر عن قبيلته أو جنسه أو مكانته في المجتمع.

الاحتفال عند ختم كتاب كبير:

وقد اعتاد العلماء الذين يقومون بالتدريس في هذه المعاهد إقامة الحفلات عند ختم كتاب ينال أهمية كبرى عندهم كالمقامات الحريرية أو مختصر الخليل أو ألفية بن مالك أو تفسير القرآن الكريم رغبة في تشجيع الآخرين على طلب العلم، وتكثير سواده، يحضرها العلماء في أصقاع البلاد ليهنئوا المتخرج، ويباركوا له، وليغتبطه زملاؤه في التعليم، ويحضر الحفلة كذلك أقاربه وأصدقاؤه.

ماذا وراء التخرج:

والطلاب الذين يتخرجون من هذه المعاهد يفتتحون المعاهد المماثلة في منازلهم وأحيائهم أو في أي مكان طرحتهم طوائح الحياة، فهم يبدؤون بأسرهم،

وأقاربهم، ومواطنيهم ثم إذا ساعدهم الحظ، وسار بذكرهم الركبان إلى خارج حدود نيجيريا، فيستقدم إليهم طلاب العلم من كل فج عميق لعلمهم وورعهم ونبوغهم في العلوم العربية الإسلامية فيصنعون صنيع أساتذتهم على الطريقة الموروثة؛ وبذلك، ينتشر العلم والدين في آن واحد إلى أرجاء البلاد المعمورة.

معيشة علماء غرب أفريقيا:

إن أغلبية علماء غرب أفريقيا وأئمتها لا يتقاضون أجوراً آخر كل شهر، وإنما كانوا يعتمدون على أنفسهم ويأكلون من عرق جبينهم، ومما عملت أيديهم من زراعة، أو صناعة، أو خياطة أو تجارة، ويضيفون إلى ذلك ما يأتيهم من الصدقات والهدايا والهبات. وقد ابتدعوا لأنفسهم مكسباً آخر يجلب لهم الأرزاق في الحفلات الدينية التي كانوا، ولا يزالون، يقيمونها حسب تقاليد البلاد الاجتماعية والدينية، منها حفلة تسمية المولود يوم سابعه، وحفلة النكاح، وحفلة الجنازة، وحفلة الشكر، ونحو ذلك من الحفلات المستحدثة عندهم(٤٢).

وقد نبغ عن هذه الطرق الثلاث عدد غفير من أدباء غرب أفريقيا وفقهائها ونحاتها حتى خلفوا لنا آثارهم العلمية تنطق ببراعتهم، وتترجم عن نبوغهم، فظهرت بفضلهم جامعات إسلامية في غانا، ومالي، وتمبكتو، وجني، ونيجيريا بلغت أوج رقيها في القرن الثامن الهجري، ولم تتقوض، ولم تتدهور إلا بقيام الثقافة الإفرنجية الحديثة(٤٣).

إن المثقف العربي الإسلامي في غرب أفريقيا يمر بمراحل ثلاث، أولها، مرحلة الكتاب حيث يبدأ به إثر انفطامه من الرضاعة، ويحفظ ما لا يقل عن عشرين سورة يؤدي بها الصلوات الخمس، ونوافل أخرى قبل أن ينتقل إلى مرحلة أخرى، إن أراد له أبواه التقدم والتوسع في العلوم العربية الإسلامية وإلا يختار له عملاً يقتات به في مستقبله. وما من مسلم أو مسلمة في غرب أفريقيا إلا ويرسله أبوه إلى الكتاتيب التي بالقرب منهم إن لم يكن عالماً، وإن كان منهم، فيكتفي بتربيته تربية إسلامية ليكون خلفاً له حياً وميتاً.

جواهر الأدب الإسلامي:

إن الإسلام هو النظام الإلهي الذي ختم الله به الشرائع، وجعله نظاماً كاملاً شاملاً لجميع الحياة، وارتضاه لتنظيم علاقة البشر بخالقهم، وبالكون والخلائق، والدنيا والآخرة، وبالمجتمع من زواج، وإنجاب، وحكم، وتنظيم كل الارتباطات التي يحتاج إليها الناس تنظيماً مبنياً على الخضوع لله وحده، وإخلاص العبادة له، والأخذ بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا النظام قام على الأصول الاعتقادية والتعبدية، والتشريعية، والأخلاقية النفسية، والاقتصادية التي جاء بها الإسلام(٤٤).

ولن تزدهر شريعة الإسلام في قطر من الأقطار إلا بتربية النفس والجيل والمجتمع على الأخلاق النبيلة؛ لذلك، عضّ علماء غرب أفريقيا نواجذهم على نواح دون أخرى، ومن أبرزها غرس العقيدة الإسلامية في أذهانهم عن طريق الحب الإلهي، والإيمان به.

١ – الإيمان بالله:

إن الإيمان في حقيقته ليس مجرد عمل لساني، ولا عمل بدني، ولا عمل ذهني، وإنما الإيمان في حقيقته عمل نفسي، يبلغ أغوار النفس، ويحيط بجوانبها كلها من إدراك، وإرادة ووجدان(٤٥) لا بد أن يبلغ هذا الإدراك العقلي حدّ الجزم الموقن، واليقين الجازم هو الذي لا يزلزله شكّ، ولا شبهة، يقول جل شأنه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ {الحجرات: ١٥}. والقرآن الكريم يعرض دائماً أخلاقاً حية، وأعمالاً ناصعة، يتميز بها المؤمنون من الكفرة والمنافقين، وفي ذلك يقول عثمان بن فوديو: إن تصحيح الإيمان يؤدي إلى إقامة حرمة الشارع فيما أمره به، ونهى عنه، والتبصر في الدين(٤٦) فقد قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ {الحشر: ٧}.

وإن علماء غرب أفريقيا، كانوا يتغنون بمناجاة الخالق المنفرد بالربوبية والألوهية. وقد تجلّت حقائقه في سائر نواميس الحياة والطبيعة، وبموجب ذلك، يلذ ذكر نعمه، وثناء آلائه، وتدبر آياته، بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا على سنة النسّاك الأدباء، فتشرق على قلوبهم وأرواحهم شمس الحقيقة واليقين، ويغمرهم من أنوار المحبة والوجد والأنس[٤٧].

ثم كانوا يتصرفون أن بدائع الله الرائعة، وصنائعه في آياته الباهرة، لا يتم بقاؤها وصلاحها في الكون والحياة كما أراد الله إلا بتمسك الطرق المثلى لتسيير خلافة الله في الأرض، فالفضائل والقيم الإنسانية من حب، وأمانة، وعدالة، وصدق، وبرّ، وتعاون تحكمها العقيدة الراشدة حسب التصور الإسلامي في الله جل شأنه[٤٨].

حتى أصبح الإسلام في غرب أفريقيا على حدّ قول شرف الدين محمد البوصيري في بردته قائلاً:

حتى غدت ملة الإسلام وهي بهم من بعد غربته موصولة الرحم[٥٠]
مكفولة أبداً منهم بخير أب[٤٩] وخير بعل[٥١] فلم تيتم ولم تئم

وقد نظم بعض شعراء غرب أفريقيا ديواناً كاملاً في الإيمان بالله، وفي الرسول وأوليائه الصالحين، وفي طليعتهم الوزير جنيد الصكتي[٥٢] والشيخ ناصر الدين الكبري الكنوي[٥٣] ومنهم الشيخ إبراهيم عبد الله السنغالي[٥٤] يقول في أرجوزته داعياً إلى الله سبحانه على نمط المؤمن المحقق:

إنـــي أفـــوض إليـــك أمـــري تفـــويض مـــوقن بنيـــل الخيـــر[٥٥]
نـــروم أن ترقينـــا بالشكـــر كمـــا ترقـــى غيرنـــا بالصبـــر
نرجـــو مـــن الـــرحمن أن يملكنـــا بفضـــله رقـــاب أربـــاب الخنـــا
أهـــد بنـــا ذي القـــرن هـــدياً كامـــلا أفـــض بنـــا للكـــل خيـــراً شامـــلا
لتكثـــر الجيـــران الصالحينـــا ولتعطنـــا الأولاد عالمينـــا
لتعطنـــا صـــوالح النســـاء وصـــالحي نســـل بســـر هـــاء
أجـــب بجـــاه المصطفـــى والآل وصـــحبه وبـــالعتيق العالـــي
هـــات المنـــى بالصـــنو والســـراج وبـــابن عفـــان وتقضـــي حاجـــي
بالكعبـــة العليـــا بطيـــب الـــهادي بفـــاس أحمـــد التجـــاني الهـــادي
صـــير أمـــور الخلـــق والعبـــاد حســـا ومعنـــى بـــأكف الهـــادي
يـــأتوا جميعـــا بعـــد فـــوج فوجـــا لطالـــب الرشـــد فحـــازوا الفلجـــا
رب لتـــرحم عبـــدك الغريبـــا لغربـــة الـــدين بـــدا غريبـــا
بـــدد جمـــوع المعتـــدين الظالميـــن وأشـــغلهم بهـــم بنـــورك المتيـــن
أيـــس قلـــوبهم بنيـــل القصـــد كـــي يرغمـــوا بجـــاه رب فـــرد
لـــتجعلن شـــر ذوي الشـــر بهـــم ولتـــرددن مكـــراً لهـــم فـــي نحـــرهم
عمتـــه الحضـــرة بالعافيـــه ونعـــم مـــن ربهـــم صافيـــه
بجـــاه أحمـــد الرســـول المصطفـــى صـــلى عليـــه ربنـــا وشرفـــا
دعوت يـا رب كما أمرتنـي لتستجيب وهات ما وعدتني[٥٦]

فالإيمان بالله بحر يعوم فيه علماء غرب أفريقيا، ويكتبون عنه شعراً ونثراً من يوم نبغوا في الإنتاج، وإلى اليوم، وإلى أن تقوم القيامة بإذن الله تعالى.

٢- تعظيم الرسول:

إن من الأدب الإسلامي بغرب أفريقيا الذي جبل عليه المسلمون، ردحاً من الزمان، هو الحب العذري للرسول قولاً وفعلاً. فالأدب الإسلامي المعروف عندهم هو "طاقة عقلية، وفنية متميزة بالشعائر الإسلامية المجيدة، نشأت منذ أشرقت نيجيريا بنور ربها، واتخذت الاتجاه الحنيف منهج حياتها في سائر النواحي، وذلك

بأن المجتمع الذي ينتمي إليه الأديب المسلم لا يقبل منه إلا النص الملتزم بشعائر هذا الدين، فسهل على المنهج الحديث أن يلقي جذوراً عميقة في واقع تراثنا القديم"[٥٧]؛ لأن علماء غرب أفريقيا يقصدون الرسول –صلى الله عليه وسلم– عند التعبير بالخلق الأكرم، وهو بشر تجسد فيه كل ما تقع عليه رؤيتهم الشفافة من سمو المعاني، وجلال الأقدار والأوصاف، مستخلصة في كونه قدوة حسنة، ومثلاً أعلى للإنسانية، اصطفاه الله أعلى الأنبياء رتبة، وأرفع الرسل مكانة، فكان أتقاهم لرب العالمين، وأطوله له[٥٨].

فكثير من علماء غرب أفريقيا أجازوا المولد النبوي، ولكن السلفيين من أتباع ابن تيمية، وابن الوهاب، يستنكرون إقامة المولد النبوي، وقالوا إنها بدعة محرمة؛ لما اشتملت عليها من أمور أخرى[٥٩]، ولكن العلماء اتفقوا على أنها إذا لم تشتمل على ما يخالف الدين من آثام، وعادات مذمومة فمباحة[٦٠].

فالمدائح النبوية متكاثرة في دواوين شعراء غرب أفريقيا فإنهم لا يطرقون إلى موضوع من موضوعات العلم، أو غرض من أغراض الشعر المعروفة إلا ويفتتحون بها، فإن لم يستهل بها شاعر في مستهل القصيدة، فإنه يختتم بها. وقد جبلوا على هذه العادة منذ أن رسخ الإسلام أقدامه في غرب أفريقيا بوجه خاص[٦١]. وتأييداً لهذا القول، يقول عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي[٦٢]: "ولما رأى زهدة الشعراء، وسادة العلماء، وقادة الأدباء الأتقياء ما في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والصلاة عليه من حلاوة، وطلاوة، وحفاوة، وكرامة، وسلامة، جعلوا يقتحمون لجّ بحره العميق نثراً ونظماً، تشطيراً وتربيعاً، وتخميساً بمناسبة إحياء ذكرى مولده"[٦٣].

ولمولد النبي عند الشعب النيجيري عامة مكانة سامية سواء المسلمون منهم والمسيحيون والوثنيون. السبب في ذلك أن الحكومة الفيدرالية تعلن إجازة رسمية في هذا اليوم ليتمكن المسلمون من الأداء بشعائر دينهم منها إقامة حفلة المولد النبوي في

الأماكن العامة (كاستاد) البلاد، وقاعات المحاضرات العمومية، ثم يتزين طلاب العلم بزي واحد، وفي أفواههم حين الذهاب والإياب، أناشيد إسلامية جذابة[٦٤].

ولمكانة المدح النبوي عند بعض مسلمي نيجيريا[٦٥] أن الزواج لا يتم إلا بحفظ بعض من المدائح النبوية، فكل من رجالهم ونسائهم، وصغيرهم وكبيرهم، وتاجرهم ومثقفيهم، يحفظون القصائد العشرينيات[٦٦] عن ظهر قلب أو يحفظون جلّها. ومن أشهر المداح في غرب أفريقيا الشيخ إبراهيم إنياس السنغالي، يقول في ديوانه على سبيل المثال:

أبـــى القلـــب إلا أن يكـــون متيمـــا ... حليـــف غـــرام بـــالنبي مهيمـــا[٦٧]
أبيـــت بليـــل الـــتم ســـهران منشـــدا ... لـذكرى الـذي قـد طـاب بـدءاً ومختمـا
أســاجل فيــه الــورق ليلــي وجيراتــي ... نيــام وجفنــي كالمــذانب مغرمــا
أنظــم درّ اللفــظ فــي ذكــر وصفــه ... وأحســن بوصــف البــدر دراً منظمــا
محمـــد مفتـــاح الفتوحـــات سيـــدي ... وخـــتم ســـلك الرســـل ختمـــا مقدمـــا
بـــه نـــال كـــل الأنبيـــاء منالهـــم ... بـــه زينـــت الحضـــرات، وقـــر وعظمـــا
رســـول مـــن المـــولى وآدم لـــم يكـــن ... ويبقـــى رســـولا دائمـــاً ومعظمـــا

ويقول أيضاً:

طحـــابي شـــوقي للأمـــين وأطـــرب ... وما شاقني غيد بذي الشيب تلعب[٦٨]
تيقّنت أن الله كان ولم يـزل ... وأنك محبوب لديه مقرب

وأنـــك هـــاد للخلائـــق مرشـــد ... وأنـــك هـــاد للإلـــه محبـــب
وأنـــك للأكـــوان نـــور ورحمـــة ... وإنـــي مـــلاذي والمهـــيمن مذنـــب
عليـــه صـــلاة اللـــه ثـــم سلامـــه ... ســلام لــدى خيــر الخلائــق مطــرب
عليه مع الآل الكرام وصحبـه ... صلاة وتسليم من المسك أطيب

وقد شاركهم في هذا الوادي شعراء نيجيريا الكبار، ومما قيل من جهة التخميس:

يا أشرف الخلق يا أعلى الورى غرفا[٦٩] يا أكرم الخلق يا أسمى الورى شرفا[٧٠]
يا أعظم الخلق يا أوفاه مغترفا يا رحمة الله يا من قد رقى وصفا
ونـــال مـــا لـــيس يـــدريه الـــذي وصفـــا

أتـــى إلـــى بابـــك المضـــطر مرتجيـــا الناصـــر الكنـــوي[٧١] يشـــدوك مســـتحيا
يقول قال عتيق منك مجتديا أزكى صلاة وتسليم عليك أيا
مشكـــاة مصـــباح رب الـــعرش يـــا صـــدفا

مـــا ربحـــت قضـــب البانـــات ضـــاحية ريـــح القبـــول بنشـــر المســـك عاطـــرة
فذكرتنا بذاك النشر كاظمة والآل والصحب والأتباع قاطبة
أهل المعالي الأولى حازوا بك الشرفا

قـــد جئـــت بابـــك يـــا مختـــار مجتديـــا وكنـــت بابـــاً مـــن الإفضـــال محتليـــا
عروس مملكة الرحمن مرتويا يا أول الخلق يا نور الإله أيا
ســـــر الـــــوجود ويـــــا غـــــوثاً لمـــــن هتفـــــا

يـــا مـــن رقـــى ليلـــة الإســـراء مرتـــديا رداء عـــز وعـــم الكـــل ممتطيـــا
كواهل المجد فوق العرش مستويا يا مظهر الجود يا كنز الوجود ويا
نـــــور الكيـــــان الـــــذي أتـــــراحنا كشفـــــا

يـــا قائـــد الغـــر يـــا كشـــاف كربتهـــم يـــا قاسـم الـرزق يـا خطـاب سكنتهـم
فكن أيا طاهر فيما ألم بهم ويا مفيضا على الوراد أجمعهم
ما فاض من بحره مهما همى وكفا

فالمديح النبوي فن من فنون الشعر التي أذاعها المتصوفون، وهي لون من ألوان التعبير عن العواطف الدينية، وباب من أبواب الأدب الرفيع لأنها تصدر عن قلوب مفعمة بالحب الصادق، والإخلاص المكين(٧٢).

٣- النشاط الديني:

إن الإسلام هو الدين الذي يطيع به العبد ربه، ويتقرب به إلى مولاه في سلوكه اليومي، وعبادته، وعاداته، وتقاليده، ومعاملاته مع الناس. وأكثر مسلمي غرب أفريقا متدينون، محافظون على الصلوات الخمس، وبقية أركان الإسلام ثم يعتني المسلمون بالمظاهر التي تعتبر دينية كإرخاء اللحى، ولبس العمائم، ويرون ذلك من سنة رسول الله التي لا يجوز للمسلم أن يتخلّى عنها. فالمسلمون في نيجيريا الشمالية على الأخص ينظرون إلى الزي الوطني على أنه هو الزي الإسلامي الذي يتعين على المسلم أن يلبسه(٧٣). أما الذي يلبس الزي الإفرنجي مثلاً، فإنه يعتبر كافراً(٧٤) ويستدلون على كفره بما يذهبون إلى أنه حديث وهو "من تشبّه بقوم فهو منهم" أما الزي الإفرنجي، فإنهم ما عرفوه قبل دخول الإنجليز إلى البلاد(٧٥).

ولكن الحقيقة هو أن هذا الرأي، قد بدأ يتغير خصوصاً مع الجيل الجديد، وإن كان البدويون لا يزالون على تقاليدهم القديمة.

ومن النشاط الديني الذي ابتدعه العلماء في بلاد يوربا من نظام الحفلات لبعض شعائر الإسلام تعظيماً لها، وتنشيطاً للمسلمين عليها، وترغيباً للكافرين في الإسلام هو حفلة تولية الإمامة، واعتناق الكفرة الفجرة للإسلام، وبعضها تقام في المدارس كحفلة ختم القرآن أو ختم كتاب كبير أو التخرج النهائي من المدارس العربية.

لقد صارت هذه الحفلات أداة من أدوات الدعوة إلى الله، ومجلساً من مجالس الوعظ والإرشاد، فلا غرو، في أن كل اجتماع للمسلمين فرصة تتيح للواعظ أن يخاطب المسلمين. وفي استقبال العائد من الحج مثلاً يخرج الأقارب والأصدقاء

إلى موقف السيارة أو محطة القطار أو المطار يستقبلون الحاج الجديد ثم يرافقونه إلى بيته في موكب عظيم كأنه ملك يتوّج، وهم يتهافتون بالأناشيد المطربة يمدحون بها النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه، ويعدون فضائل من حجّ، وزار قبر النبي[٧٦].

وفي اعتناق الإسلام، يجتمع العلماء والأئمة في بيت المسلم الجديد وحوله أهله وذووه ليعلن إسلامه بينهم، ويتولى الإمام تلقينه كلمة الشهادة بمشهد المسلمين[٧٧] وربما قام الداعي بتوزيع الهدايا، والصدقات، من الأموال والحلوى والثمار أو يتقدم إليهم بطعام الإفطار أو الغداء أو العشاء[٧٨] على حسب الوقت، يحدث في نيجيريا، والداهومي، وغانا، ومالي، وسنغى[٧٩]. ولقد كان الإسلام ينتشر في ربوع نيجيريا الغربية بقوته الروحية لا بالقوة المادية، وكانت النفوس تنجذب إليه بمغناطيسه الطبيعي، لا بدعاية الأموال والأسلحة[٨٠].

٤– أدب المسلمة بغرب أفريقيا:

المرأة المسلمة، شريكة الرجل في تعمير الأرض، وأطهر عمارة[٨١] وصدق رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين قال: "النساء شقائق الرجال". تحتل المرأة في حياة الإنسان مكانة عظيمة؛ إذ هي نصف الجنس الإنساني. والرجل هو النصف الآخر، وقد خلق الله كلاً منهما لأداء مهمة خاصة مكملة لمهمة صاحبه، ولضعف بنية المرأة البيولوجية، عاشت في التاريخ مهملة ومذللة في حجر أبيها، حتى جاء الإسلام، وحرّرها وأكرمها، فذكرها في كثير من السور، وسمّى إحدى السور "سورة النساء" وأخرى بـ "سورة مريم" ثم ساوى بينها وبين الرجل في الثواب والعقاب، وأعطاها كثيراً من الحقوق التي كانت محرومة منها[٨٢].

كانت المرأة في غرب أفريقيا القديم تعتبر خادمة تخدم زوجها في ذلّ وانكسار، وليس لها حق التصرف فيما تملك بدون إذن زوجها، فهي في القرية، تعصر الزيت من حبوب النخيل، وتلتقط الحبوب والفواكه في البستان، وتجمع

الحصاد، وتدرسها وتطحنها وتعجنها وتهيئها للأكل أو للبيع. وتصنع الخزف من الطين اللآزب، كل ذلك لخدمة الزوج والأولاد[٨٣].

وفي المدينة، تغزل الأقطان، وتنسج الأقمشة أو تتاجر لتسلم الأرباح كلها للزوج المسؤول عن المستلزمات المنزلية. لهذا، يعتبر تعدد الزوجات مزية للرجال، ويقاس ثراء الرجل بمقياس كثرة زوجاته. وللزوجة الأولى الكبيرة حق السلطة على الباقيات، وكلهن في خدمة أزواجهن[٨٤].

ففي النكاح مثلاً، فإن التقاليد لا تختلف كثيراً بين قطر وآخر، لأن الآباء لا يزالون في معظم الأحوال متمسكين بسلطتهم الشرعية في إجبار بناتهم على زواج من يختارونهم لهن، والقليل منهم هو الذي يراعي ميل البنت. وكثيراً ما أثار ذلك خلافاً شديداً بين أم البنت وأبيها؛ لأن الأمهات في الغالب يملن إلى ما تميل إليه بناتهن، وقد بدا الآباء في الزمان الحاضر يدركون حق البنت في اختيار زوجها من فشل الزواج الإجباري بكثرة، لأن البنت لا تلبث أن تهرب من البيت الذي لا تحبه فتختفي أياماً في منزل أحد أقاربها ثم ترفع شكواها إلى القاضي الذي يحكم لها بالطلاق من ذلك الزوج[٨٥].

وهناك عادة منتشرة وهي أن الزوج يستحي من والد زوجته ووالدتها، ويحترمهما إلى حد كبير. أما حياء الزوجة من والد زوجها ووالدته، واحترامها لهما فأشد، ولكن هذه العادة قد أخذت تقل بعض الشيء، خصوصاً في الأوساط المتعلمة[٨٦]. ومن العادات السائدة أن الزوجة لا يمكن بحال من الأحوال أن تدعو زوجها باسمه، أو تذكر اسم والده أو اسم والدته، فإذا أرادت الزوجة أن تخاطب زوجها، قالت له "مالم"[٨٧] أو "ألفا"[٨٨] أو "أستاذ"[٨٩]، وإذا أرادت أن تناوله أي شيء سواء هو واقف أو جالس، جلست على الأرض ومدته إليه، احتراماً له، لأنه ألقي أن احترام الزوج واجب، شرعاً على المرأة، وأن سعادتها في الآخرة، تتوقف على احترام الزوج[٩٠]، فالنساء المتعلمات اليوم قد أصبحن يطلبن إلى الزوج أن يحترمهن أكثر، جرياً على تقاليد المدنية الحديثة.

٥- التعاون على البر:

في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وفي أوائل الستينيات، تحررت المستعمرات بغرب أفريقيا، فاندفع المسلمون للقيام بجهود جبارة، ويقين حار يعملون أفراداً وجماعات لإعادة مجد الإسلام واللغة العربية إلى البلاد، فصادف أن فتحت السفارات الدبلوماسية في البلاد، وعلى مقدمتها، سفارة مصر العربية، وسفارة المملكة العربية السعودية ثم سفارة العراق، وليبيا والمغرب، والسودان، فكانت لهذه السفارات أيادي بيضاء في المشاريع الإسلامية التي قام بها الأفراد والجماعات في تلك البلاد، خصوصاً سفارة مصر العربية التي لها مكانة عميقة في نفس كل مسلم بفضل الأزهر الشريف[٩١] ثم سفارة المملكة العربية السعودية التي لها منزلة سامية عند كل مسلم بفضل الحرمين الشريفين، كما قامت سفارات أخرى بدور ملموس في محاولة توحيد صفوف المسلمين رغم تعدد الجمعيات من جهة، ومن المؤسسات من جهة أخرى.

ولقد تقدّمت المملكة السعودية على الخصوص بمعونات أدبية، ومساعدات مالية، وبعثات ثقافية في غرب أفريقيا عن طريق رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ودار الإفتاء بالرياض. إن العمل في حقل الإسلام من التعليم والتذكير والوعظ والإرشاد والتبليغ وغير ذلك أمانة في عنق كل مسلم مهما كانت منزلته في المجتمع على أساس اعتماد الفرد على نفسه أو على أساس التعاون الجماعي[٩٢].

بمثل هذا، نجحت الدعوة في غرب أفريقيا منذ قرون، وبمثل ذلك تنجح اليوم وغداً، ولن تنجح الدعوة ممن يتحملها لغرض في نفسه من حقد أو حسد لأحد، ولا ممن يتحملها سلعة يعرضها على أحد ليقبلها أو يردها أو يساومها بزيادة أو بخس كالذين يراؤون الناس بأعمالهم، ويملؤون الدنيا ضجيجاً بالدعاية الجوفاء التي تسمع جعجعتها ولا ترى طحناً[٩٣].

قد ندب الإسلام إلى التعاون على البر والتقوى بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ {المائدة: ٢}، والرسول يقول: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا". فالتعاون يجب أن يكون على الأعمال التي لا تتم على يد فرد إلا على يد جماعة أو ما عجز عنه من بدأ به فيعان على إنجازه.

وإلى الذين يمنعون الأعمال الخيرية بدعوى أنها إرهاب وتخريب لأمن العالم، يقول فيهم الشاعر النيجيري:

منعتم الناس منع أمار فامتثلوا مثل غلمة الدار[٩٤]
منعتم بذل مالهم طلبا لوجه ربي بكل إصرار
حذرتم من إغاثة اللهف تحسروا في عذاب أعمار
مساجد الناس من يكملها وكيف تروى مياه آبار؟
وأين من ينقذ الخليقة من جان يبث الفساد بالعار؟
أنشر دين السلام إرهاب ونصرة الخير عند أخيار؟

٦- التصوف الإسلامي:

الصوفية مذهب يدعو إلى تصفية النفس وتزكيتها والتقرب إلى الله بالنوافل بعد اكتمال الفرائض للحصول على محبة الله[٩٥] وقد كان أغلب مسلمي غرب أفريقيا يلتزمون طريقة من الطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية والسنوسية، ومن رجال هذه الطرق، تكونت الجيوش الإسلامية التي قادها الدعاة الذين أسسوا الدول، والحكومات الإسلامية بغرب أفريقيا، وكان من أسباب تمسّك الأفارقة بأوراد هذه الطرق وأذكارها ما يأتي:

أولاً: اعتقادهم أن لها تأثيراً كبيراً في استجابة دعواتهم أو أن الولي الذي انتسبوا إليه إنما حصل على درجة الولاية من تلك الأذكار.

ثانياً: بقية فطرة التدين في نفوس الكثيرين منهم، فلم تطب نفوسهم بالاقتصار على الفرائض دون إضافة النوافل الخيرية إليها باعتبار أن الفرائض رؤوس الأموال، والنوافل هي الأرباح التي تؤخذ منها لتكميل الفرائض إذا انتقصت.

ثالثاً: كان العلماء يتشدّدون في ضرورة الأخذ بالتجويد لقراءة القرآن، فيهرب العوام من تلاوته إلى الالتزام بالأوراد التي يحصل لهم فيها الثواب دون تلاوة القرآن التي يأثمون منها إذا لم يجوّدوا القرآن كما يجب[٩٦].

وإن الزوايا الصوفية في غرب أفريقيا كانت معسكراً للجيوش، ومعهداً للطلاب، وملجأ للمنكوبين[٩٧] بل الطرق الصوفية في غرب أفريقيا رابطة قوية، وطاقة نفسية صلبة، تنظم أفراداً من الأتباع في سلك واحد، وتحت قيادة مسموعة ومتبوعة، وكانت الطرق تعمل عمل الجمعيات الخيرية الحديثة في السلم، وتعمل عمل الجيش الإسلامي في الحرب[٩٨]، وكانت الزوايا التي يتمركز فيها أصحاب الطرق مقام الملاجئ للفقراء والمساكين، وتقوم مقام المعاهد والمدارس لطلبة الثقافة من القرآن، والحديث، والفقه، والأخلاق حتى أنجبت الثقافات، والحضارات، والدول، والحكومات التي يذكرها التاريخ، وكل ما يذكر من آثار العلم، والأدب، والثقافة في تلك البلاد، إنما هي غرس من غراس رجال الطرق الصوفية[٩٩].

وبفضل التصوف والطريقة القادرية استطاع الشيخ عثمان بن فوديو[١٠٠] أن يكوّن الجيش الإسلامي ليحارب بهم الطغاة الجبابرة من ملوك السودان حتى أسس أكبر دولة إسلامية اكتسحت جميع ما يعرف اليوم بشمال نيجيريا، ويبلغ عدد سكانها اليوم ستين مليوناً ونصف[١٠١]، وبفضل التصوف والطرية التيجانية، استطاع الحاج عمر الفوتي أن يؤسس بالسنغال ومالي دولة إسلامية، قاومت الاستعمار الفرنسي عند احتلالهم للبلاد طوال ربع قرن.

إن الذين يقولون بأن رجال الطرق الصوفية في غرب أفريقيا، كانوا أداة مسخّرة للاستعمار، أو كانوا عضواً أشلّ في المجتمع، قد تلقوا الخبر الكاذب من فاسق، ولم

يتبيّنوا حتى أصابوا القوم بجهالة[١٠٢]. وفي التصوف الإسلامي النزيه من المغالاة والترهات، يقول عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي النيجيري على لسانهم:

إن التصوف بالإسلام موصول حقيقة إنه زهد وتبتيل[١٠٣]
فلا انفكاك له عن ديننا أبدا مهما تقاومه من قوم أباطيل
فإنه الشرح للإحسان حيث أتى من النبي حديث عنه منقول
إن التصوف صابون وتزكية للقلب ثم لهذا الدين تجميل
لكن عمدته علم ومعرفة إن التصوف دون العلم تضليل
فإنه العلم قلب للتصوف بل من ادعاه على الجهلات معذول
ومن تصوف قد طابت معيشته دعاؤه لو دعا الرحمن مقبول

وإذا كان للصوفية سيئات في البلاد الأخرى، فإن لها حسنات في نيجيريا بوجه خاص، وفي غرب أفريقيا بوجه عام[١٠٤].

٧- الذكر والدعاء:

الذكر والدعاء من نوافل الخير، ومن فضائل الله ونعمه ورحمته على عباده المؤمنين. ومن الكرامات التي كانوا يتحدّون بها البشرية[١٠٥] غير أن علماء غرب أفريقيا قد تحدّوا بكراماتهم السحرة فألزموهم العجز، وألقموهم الحجر، فبذلك، صارت كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى.

وقد حصلت كرامات كثيرة للدعاة الإسلاميين الأولين في غرب أفريقيا، منها: إظهار الطعام في غير أوانه، أو حصول ماء في زمان عطش، أو قطع مسافة بعيدة في مدة قريبة أو تخليص من عدو أو خطر أو سماع خطاب من هاتف، أو إجابة دعاء، وهي أكثر وقوعاً، وأقربها حدوثاً[١٠٦] لذلك، ظلّ الناس ينظرون إلى العلماء المسلمين حتى اليوم نظرة إكبار وإجلال، وظلّ الملوك والأمراء والأغنياء يتوسلون بدعائهم إلى قضاء حوائجهم[١٠٧].

فلا غرو، فإن كثيراً من أدباء غرب أفريقيا، يصدرون بنات أفكارهم نثراً ونظماً في ملازمة الأذكار والأدعية لينمو الجيل بعد الجيل على الإيمان بدعاء ربه ليلاً ونهاراً، ولله در القائل:

أتهـــــزأ بالـــــدعاء وتزدريـــــــه وما تـدري بمـا صـنع الدعـاء[١٠٨]
ســـهام الليـــل لا تخطـــي ولكـــن لهـــا أمـــد، وللأمـــد انقضـــاء

وفي مقدمتهم في النثر الشيخ يوسف عبد الله اللكوجي[١٠٩]، والمغزى في هذه المؤلفات إنما ليلتجئ المسلم الناشئ إلى ربه في الأفراح والأتراح، وتحذيراً من الإتيان بالسحرة والكهنة الذين انتشروا في غرب أفريقيا انتشار جراد وطاعون. وفي طليعتهم في النظم عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي. وقد أصدر هذا الشاب الظريف الكريم دواوين تحثّ على لزوم الأذكار والأدعية، ولعل أحسن ما جادت به قريحته في هذا الميدان ديوانه بعنوان "هيا إلى الرحمن" وفيه يقول:

ســـــبوح يـــــا رجـــــائي قـــــدوس ذا الثنـــــاء[١١٠]
اللـــــه يـــــا مجيبـــــي ارحـــــم أخـــــا النجيـــــب
يـــــا جـــــامع الشـــــتات ومحيـــــي الرفـــــات
اجعلنـــــي الـــــدميثا فـــــي الخلـــــق لا الخبيثـــــا
هيـــــئ لـــــي الفروجـــــا مـــــن الأســـــى البهيجـــــا
وآتنـــــي النجاحـــــا فـــــي الأمـــــر والفلاحـــــا
فـــــي الهـــــم لـــــي رســـــوخ وأنـــــت لـــــي صـــــريخ
يـــــا خـــــالق العبـــــاد ثبـــــت لـــــي اعتقـــــادي[١١١]

وعلى هذه الاتجاهات والنواحي في الدعاء ينجب مسلم غرب أفريقيا، وعليه ينمو، ويكبر إلى أن يشيخ ويأتيه أجله.

مشكلات غرب أفريقيا:

للمسلمين في غرب أفريقيا مشكلات مماثلة لمشكلات إخوانهم في سائر أنحاء العالم، منها: مشكلة القيادة، وهي فقدان القيادة التي تجمعهم تحت رأي، وتوحيد

صفوفهم وراء خليفة أو إمام يتكلم بلسانهم، ويحمي ذمارهم، ويدافع عن حقوقهم. فالجمعيات الإسلامية موزعة في مختلف الأغراض والاتجاهات، والطرق الصوفية متعصّبة لمختلف المشايخ والطرق، ثم جاءت الأحزاب السياسية تفكّك جميع الجبهات والاتحادات. ومن مشكلاتهم العصبية القبلية التي قد فتحت عيون كل قبيلة على مناقب نفسها، ومثالب غيرها في العادات والتقاليد، وغرست في قلب كل قبيلة إيثار نفسها على غيرها في كل مجال حتى في الدين[١١٢] وصار الأمر على حدّ قول الشاعر:

جروح بلادي متى تندمل[١١٣] ونضج رجالي متى يكتمل؟[١١٤]
تمر علينا السنون بلا جهود تعللنا بالأمل
تئن بلادي وصورتها مشوّهة عند كل الدول
ضميري يؤلمه قولهم (نيجيريا) مكتظة بالعلل
بلادي عن حجم خيراتها وأنجابها في الورى لا تسل
فهل ذاك أجدى العباد وهل أفادهم في جواز الأمل؟
مآسي بلادي متى تنتهي جروح بلادي متى تندمل؟

الخاتمة:

إن الأدب الإسلامي بغرب أفريقيا يعتمد على مصادر متينة، ومناهل شتّى منها، الإيمان بالله، وتعظيم رسول الله، والأنشطة الإسلامية بأنواعها وأشكالها، وأدب المسلمة، والتعاون على البر، والتصوف الإسلامي، والذكر والدعاء، وعلى هذه الأسس ينجب مسلمو غرب أفريقيا، وبها تنال الدعوة الإسلامية رواجاً بين الأوساط المسلمة من جهة، والمسيحية والوثنية من جهة أخرى.

المراجع والمصادر

١. محمد العربي، الفيصل (الرياض: العدد٢٢٣، ١٩٩٠م)، ص٤٥.

٢. الخطابي، الفيصل، ص٤٥.

٣. عبد الرحمن محجوب، دقل، مجلة تصدرها كلية الآداب والدراسات الإسلامية بجامعة عثمان بن فوديو (صوكوتو، العدد الأول، ١٩٨١ – ١٩٨٢م)، ص١٦٠.

٤. الخطابي، الفيصل، ص ٤٥– ٤٦.

٥. محجوب، دقل، ص١٦٠.

٦. عبد الحميد محمود المسلوت، الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام (الجامعة الليبية: ط١، ١٩٧٣م)، ص٥.

٧. هو المحاضر بقسم اللغة العربية بجامعة إلورن، نيجيريا.

٨. ألقاها الشاعر في الندوة الأولى حول الأدب الإسلامي التي نظمتها رابطة الأدب الإسلامي بكلية الدراسات العربية والشريعة الإسلامية، إلورن، ولاية كوارا، نيجيريا ما بين ٢٢ –٢٥ فبراير، ٢٠٠٥م.

٩. آدم عبد الله الإلوري، موجز تاريخ نيجيريا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥م)، ص١٧.

١٠. مصطفى زغلول السنوسي، روائع المعلومات عن أقطار أفريقيا وبعض ما نبغت فيها من المملكات (الرياض: مطابع الشرق الأوسط، ط١، ١٩٩١م) ص١١٢.

١١. السنوسي، روائع المعلومات، ص١١٥.

١٢. كثيراً ما يصرفون جلّ أوقاتهم بالدراسة والتحليل عن غزوات الرسول وقصص الأنبياء، وبالذات الحجاز لمقامه الديني.

١٣. آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني (ط٢، ١٩٧٨م)، ص١١-١٢.

١٤. السنوسي، روائع المعلومات، ص١١٥.

١٥. آدم عبد الله الإلوري، الإسلام اليوم وغداً في نيجيريا (القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٩٨٥م)، ص٤٧ – ٤٨.

١٦. الإلوري، الإسلام اليوم وغداً، ص٤٩.

١٧. فضل كلود الدكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم (منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط١، ١٩٩٨م)، ص١٢١.

١٨. الدكو، الثقافة الإسلامية في تشاد، ص١٢٥.

١٩. المصدر السابق نفسه، ص١٤٥.

٢٠. المصدر السابق نفسه، ص١٣٥- ١٤٦.

٢١. الإلوري، الإسلام في نيجيريا، ص٣٩-٤٠.

٢٢. المصدر السابق نفسه، ص٤٠.

٢٣. المصدر السابق نفسه، ص١ – ٤٢.

٢٤. إبراهيم صالح موسى، المرشد في التاريخ الإسلامي (كنو: مطابع شركة الحكمة للطباعة والنشر والإعلانات العربية، الجزء الرابع)، ص٩٣.

٢٥. الإلوري، الإسلام في نيجيريا، ص٥٢.

٢٦. علي أبو بكر، الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ -١٩٦٠م (بيروت: مؤسسة عبد الحفيظ، البساط، ١٩٧٢م)، ص١٥٠ -١٥٢.

٢٧. هي مملكة كبيرة في نيجيريا، دخلها الإسلام في عهد قديم وربما في القرن الأول من هجرة الرسول.

٢٨. دولة كبيرة من دول غرب أفريقيا.

٢٩. قوم في شمال نيجيريا، غالبيتهم مسلمون غيورون على دينهم.

٣٠. وهم قبيلة يسكنون في جنوب نيجيريا.

٣١. آدم عبد الله الإلوري، نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي (بيروت: دار العربية للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٨٠م)، ص٣٤.

٣٢. أبو بكر، الثقافة العربية في نيجيريا، ص١٥٤.

٣٣. ومعناه الحافظ.

٣٤. مي، "ستون" كلمة هوساوية تعني: صاحب الستين أي حافظ الستين حزباً.

٣٥. معناه قوي في علوم القرآن. وقد يقال: "الله رام" لحافظ القرآن. وهذه الألقاب تطلق على حفظة القرآن تلاوة وترتيلاً. ويعقد لذلك امتحان عسير أمام جمهرة من كبار الحفاظ بما فيهم أستاذه، وعند اجتيازه الامتحان، يخلع عليه هذا اللقب. ثم يقام لهذه المناسبة احتفال بهيج يحضره خلق كثير، وجمّ غفير من الفقهاء والحفّاظ وعلية القوم، ويكون يوماً مشهوداً تذبح فيه الذبائح، تكريماً لصاحبه. وحاصل هذا اللقب تكون له مكانة رفيعة لدى الخاصة والعامة، ويلقى الاحترام والتقدير، ويزوجه علية القوم بناتهم، ويدفعون مهورهن من أموالهم، وهم يقصدون من ذلك نيل رضاهم لإيمانهم بأن حافظ القرآن والعالم يشفع يوم القيامة فيشفع لمن هم على صلة رحم به، لذلك يبادرون بوصل أرحامهم به عسى أن يدخلوا الجنة بشفاعتهم يوم القيامة.

٣٦. أشهر بلاد هوسا القديمة والحديثة، وأغناها وأوسعها، وأرقاها. وقد زار هذه المدينة أعلام الفكر الإسلامي، أمثال الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني. مكث بها مدة تولّى فيها القضاء والإمامة، وتزوّج بها، وخلف ثلاثة أولاد بها، وهم أحمد، وعيسى، والسيد الأبيض. ومن الزوار الكبار، الشيخ عبد الرحمن الزناتي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. لمزيد عن المعلومات: انظر: موجز تاريخ نيجيريا للشيخ آدم عبد الله الإلوري، ص ٨١ و ٨٢، والإسلام في نيجيريا للمؤلف نفسه، ص٨٨ -٨٩.

٣٧. عمر إبراهيم، حديقة الأزهار (الرباط: مطابع المعارف الجديدة، ط١، ١٩٩٦م)، ص٥٤-٥٥.

٣٨. كانت لمقامات الحريري منزلة عظيمة عند علماء غرب أفريقيا لأنهم يحفظونها عن ظهر قلب، ويتعجبون بأسلوبها غاية الإعجاب لما فيها من المحسنات اللفظية والمعنوية. فليس هنالك عالم طبقت شهرته الآفاق إلا قرأ ذلك الكتاب وحفظه أو كثيراً من أشعاره. وكانوا يستفيدون من المواعظ والحكم والأمثال الموجودة في الكتاب. ويحاول بعضهم أن يجد تفسيراً، وحلاً دينياً يطمئن إليه القلب للحيل ورذائل القول، ووصف الخمر وذكر أوصاف النساء المتضمنة فيها.

٣٩. هو مختصر الخليل بن إسحاق على مذهب الإمام المالكي، وقد اشتهر الكتاب في غرب أفريقيا خصوصاً بين العلماء والمحاكم الشرعية الاستئنافية. وقد أقصى المؤلف الاختصار ما لا مزيد عليه، ومن أجل ذلك، كثر شارحوه.

٤٠. إن الذين يتصدون للتدريس في هذه المعاهد أكثرهم تفوقوا في قواعد اللغة العربية، وفي أصول الشريعة الإسلامية. ومنهم من تخرج من مدارس فاس، وطرابلس، وتمبكتو، وجني، ومصر وغيرها من المعاهد والمراكز في أفريقيا وآسيا.

٤١. شيخو أحمد سعيد غلادنث، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا (الرياض: شركة العبيكان للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٣م)، ص٧٠ – ٧١.

٤٢. الإلوري، نظام التعليم العربي ،ص١٥٤.

٤٣. الإلوري، الإسلام في نيجيريا، ص٥٤.

٤٤. سعيد إسماعيل علي، أصول التربية الإسلامية (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٣٦٩هجرية)، ص٥.

٤٥. يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة (القاهرة: مكتبة وهبة، ط١٦، ٢٠٠٧م)، ص١٦.

٤٦. عثمان بن فوديو، حصن الأفهام من جيوش الأوهام (القاهرة: النهار للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م)، ص١١.

٤٧. عبد الباقي شعيب أغاكا، الأدب الإسلامي في ديوان الإلوري (إلورن: مطبعة ألبي، ط٢، ٢٠٠٣م)،٨٢ – ٨٣.

٤٨. أغاكا، الأدب الإسلامي، ص٨٤.

٤٩. شرف الدين محمد البوصيري، بردة المدح، نشر هذا الكتاب الحاج عبد الله اليسار، سنة النشر ومكانه غير مذكورين.

٥٠. المقصود به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٥١. يعني أبا بكر الصديق.

٥٢. ومن الأسف أن هذا الديوان لا يزال مخطوطاً، وقد وجدت نسخة منه من مكتب المتحف بولاية صوكوتو، عام ٢٠٠٨م.

٥٣. أطلق على ديوانه "سبحات الأنوار من سحبات الأسرار"، تحمل إنفاق نشره الحاج الشريف بلا، ويبدو أن الكتاب بحاجة إلى الطبع لأن النسخة التي بين يدي، مكتوبة بالآلة الكاتبة.

٥٤. ناشر الطريقة التيجانية في غرب أفريقيا عموماً.

٥٥. إبراهيم عبد الله نياس، الكبريت الأحمر (القاهرة: النهار للطبع والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣م)، ص٢.

٥٦. وبالنظرة إلى القصيدة مرة ثانية، فإننا نراها أنها مبنية على حروف قوله تعالى: "إن الله بصير بالعباد".

٥٧. أغاكا، الأدب الإسلامي، ص٨٠.

٥٨. المصدر السابق نفسه، ص٨٣.

٥٩. آدم عبد الله الإلوري، تقارير مركز التعليم العربي الإسلامي لعام ١٩٩١م، ص١١٥.

٦٠. إن إقامة مولد رسول الله من محاسن الإسلام لأن ملوك غرب أفريقيا يقيمون أعياد موالدهم، وأعياد الجلوس على عروشهم، فكيف لا يجوز إقامة ذكرى مولد خاتم الأنبياء والمرسلين، ومؤسس الدولة الإسلامية الخالدة.

٦١. وهم بذلك يستمسكون بقول الفازازي في معرض المدح لرسول الله حيث قال:

إمام لرسل الله بدأ وعودة به يختم الذكر الجميل ويبدأ

٦٢. هو من شعراء نيجيريا البارزين.

٦٣. عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي، فتح الحنان في الصلاة على خير ولد عدنان (لاغوس: شركة رضوان الله أكبر للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٨م)، مقدمة الكتاب.

٦٤. وقد أكثر الشعراء في مدح الرسول عبر العصور الأدبية كلها على اعتبار الأنبياء أحياء عند ربهم يرزقون. أما في نيجيريا فقد أطنبوا في مدح الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام لحبهم فيه، وبأن كلامه هو المصدر الثاني بعد القرآن.

٦٥. عرفت هذه العادة مع جزء من بلاد يوربا.

٦٦. هي القصائد التي قالها عبد الرحمن بن أحمد الفازازي الأندلسي المسماة بـ "الوسائل المتقبلة في مدح النبي".

٦٧. إبراهيم عبدالله السنغالي، نزهة الأسماع والأفكار في مديح الأمين ومعاني المختار (كنو، ط٣، ١٣٨٦ هجرية)، ص٦.

٦٨. السنغالي، نزهة الأسماع، ص٦٨.

٦٩. أبو بكر عتيق الكنوي، إتحاف الأحياء بذكرى وقعة أحد ومن بها من الشهداء، ص٤٧.

٧٠. سبب هذه القصيدة أن الشاعر رأى في المنام كأنه جالس بين يدي رسول الله، ومعه جماعة كثيرة، فأصبح ينشد المدائح أمامه، وفي لسانه، هذا البيت:

أسرى بك الله نوراً نحو حضرته فنلت ثم أيا مختاره التحفا

والجماعة يجيبون على عادة المداح حين ذلك استيقظ، المرجع نفسه، ص٤٧.

٧١. إشارة إلى مخمس القصيدة، وهو من كبار شيوخ الطريقة القادرية في غرب أفريقيا عامة.

٧٢. محمد الأمين عمر، هدية الأحباب والخلان (القاهرة: مطابع الزهراء للعلم العربي، ١٩٨٨م)، ص٢٦٠.

٧٣. المقصود بالزي الإسلامي هنا السروال مع الشعار عليه ابادا: وهو نوع من الثياب له أربعة أكمام واسعة جداً وقلنسوة، ،وكان غيرهم يشاركونهم فيه. وبعض المساجد تطرد من الصف الأول إلى الوراء من لم يغطِّ رأسه بالقلنسوة.

٧٤. أبو بكر، الثقافة العربية في نيجيريا، ص٢٣٥.

٧٥. المصدر السابق نفسه، ص٢٣٥- ٢٣٦.

٧٦. الإلوري، الإسلام في نيجيريا، ص١٤٣.

٧٧. والحمد لله أن التوعية الإسلامية بدأت تنتشر في كل مكان، ولا تكاد تمر جمعة بالمسجد الجامع بمدينة أينبا، ولاية كوغي إلا ويعتنق مسيحي أو مسيحيان إضافة إلى الوثنيين الدين الإسلامي. ويحدث أحيانا بجامعة ولاية كوغي، نيجريا.

٧٨. إن العادة التي عليها الجمهور في مسجد جامع أنيبا هي الإعلان بالاعتناق ومطالبة الحاضرين بالتبرع بالأموال لا غير.

٧٩. الإلوري، الإسلام في نيجيريا، ص١٤٣- ١٤٤.

٨٠. الإلوري، موجز تاريخ نيجيريا، ص٣٦.

٨١. عبد الحليم أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة (كويت: دار القلم للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٠م)، ص١٥.

٨٢. أمينة الصاوي، حواء وبناتها في القرآن الكريم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م)، ص٤.

٨٣. الإلوري، الإسلام اليوم وغداً، ص١٢٥.

٨٤. المصدر السابق نفسه، ص١٢٥ – ١٢٦.

٨٥. أبو بكر، الثقافة العربية في نيجيريا، ص٢٣٩ -٢٤٠.

٨٦. السبب في ذلك أن المتزوجين إذا كانا من خريجي الجامعات والمعاهد العليا، فكثيراً ما يستأجران شقة في ضواحي البلاد تجنباً لأي اصطدام وصراع بين آبائهما وأمهاتهما وأقربائهما.

٨٧. والكلمة مأخوذة من العربية، ومعناها "يا أيها المعلم".

٨٨. هذا الاسم اشتهر بين اليورباويين في نيجيريا، والمقصود منه هو من كان يعلم الناس العلوم العربية الإسلامية أو مجاب الدعوة. ولعلهم يعنون به إنسان كألف في القوة والمساعدة.

٨٩. المدرس الذي يدرس الناس تعليم القرآن وعلوم الدين الإسلامي.

٩٠. أبو بكر، الثقافة العربية في نيجيريا، ص٢٤٠.

٩١. وقد خصص الأزهر الشريف أروقة خاصة لطلبة غرب أفريقيا، منها: رواق الدكارنة، نسبة إلى دكار، والرواق البرنوي نسبة إلى برنو. ولمزيد عن الأروقة، وأسماء الطلبة المتخرجين من الأزهر الشريف، انظر: حركات اللغة العربية وآدابها في نيجيريا للبروفيسور شيخو أحمد سعيد غلادنث، ط٢، ١٩٩٣م، ص٢٠٥.

٩٢. الإلوري، الإسلام اليوم وغداً، ص١٥٧ –١٦٠.

٩٣. العرب تقول في أمثالها "أسمع جعجعة ولا أرى طحنا" مثل يضرب للجبان يعد ولا يوقع، وللبخيل يعد ولا ينجز.

٩٤. عيسى ألبي أبو بكر، السباعيات (القاهرة: النهار للطبع والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٨م)، ص١٢٣.

٩٥. آدم عبد الله الإلوري، دور التصوف والصوفية (القاهرة: دار التوفيق النموذجية للطباعة)، ص٧.

٩٦. آدم عبد الله الإلوري، توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب أفريقيا (القاهرة: مطبعة الأمانة، ط١، ١٩٧٩م)، ص٧٩ –٨٠.

٩٧. آدم عبد الله الإلوري، آثار العلم والفلسفة والتصوف في مسيرة الدعوة الإسلامية (القاهرة: دار التوفيق النموذجية للطباعة، ط٢، ١٩٩١م)، ص٦٨.

٩٨. الإلوري، آثار العلم والفلسفة والتصوف، ص٧٣.

٩٩. الإلوري، آثار العلم والفلسفة والتصوف، ص٧٣.

١٠٠. إن الشيخ عثمان بن فوديو شيخ من شيوخ الطريقة القادرية، ورائد من روادها، ولعل قصيدة قالها الشيخ نفسه باللغة الفلانية، التي عربها شقيقه عبد الله بن فوديو دليل قوي على ما نقول، إذ قال:

يـــا رب يـــا متفضـــل لعبـــاده صـلني بفضـلك عنـد عبـد القـادر
إن المســـيء لـــدى الأكـــابر يلتـــج فلجـأت عنـد الشـيخ عبـد القـادر

إلى أن قال:

عربـــت مـــا لأخـــي وشـــيخي عجمـــة متوســـلين معـــاً بعبـــد القـــادر

والقصيدة طويلة، إنما اقتطفنا هذه الأبيات منها. وهي موجودة في كتاب تزيين الورقات للشيخ عبد الله فوديو.

١٠١. الإلوري، آثار العلم والفلسفة والتصوف، ص٧٣.

١٠٢. المصدر السابق نفسه، ص٧٣ –٧٤.

١٠٣. عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي، نشر الياسمين في قصائد عيد الأربعين (لاغوس: مطبعة مركز العلوم اوتب، أغيغى، ١٩٩١م)، ص٧.

١٠٤. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن، الشعر الصوفي في نيجيريا: دوافع واتجاهات، مقال نشره مجمع البحوث الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد – باكستان، العدد الرابع، المجلد ٤٣، ٢٠٠٨م،ص٢٤٧.

١٠٥. الإلوري، الإسلام اليوم وغداً، ص١٦٩.

١٠٦. الإلوري، توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب أفريقيا، ص٨٦ –٨٧.

١٠٧. المصدر السابق نفسه، ص٨٧.

١٠٨. محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الإمام الشافعي (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م)، ص٢٣.

١٠٩. هو أحد الشيوخ الكبار في نيجيريا، له ما يزيد على سبعين كتاباً بين منثور ومنظوم. وجزء من مؤلفاته تركز على الأذكار والأدعية، منها اللؤلؤ والمرجان في كيفية استعمال فاتحة الكتاب، وتبر الذهب الخالص في فضائل لزوم تلاوة سورة الإخلاص، والكنز المدفون، وما إلى ذلك من إنتاجاته.

١١٠. عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي، هيا إلى الرحمن (لاغوس: شركة رضوان الله أكبر للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٥م)، ص٤.

١١١. ومن مؤلفاته في الموضوع ديوانه بعنوان "زاد الإخوان في المناسبات الحسان، وآخر لاميته. فالمولى نسأل أن يكثر أمثاله في غرب أفريقيا بشكل خاص، وفي العالم العربي والإسلامي بشكل عام.

١١٢. آدم عبد الله الإلوري، أشعة العقول والنقول على أضواء القنديل والفضول (لاغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية بأغيغى، ط١، ١٩٨٨م)، ص ١٠ –١١.

١١٣. تتراجع إلى البرء.

١١٤. أبو بكر، السباعيات، ص٩١.